البلاغة عند العرب في الجاهليّة

اشتهر العرب في العصر الجاهلي بفصاحة اللسان وبلاغته في التعبير، والقدرة العالية في اختيار الألفاظ الدقيقة البعيدة عن التعّقيد، ولم يكتسب العرب هذه الفنون من علم تعلّموه وإنما جاءت هذه الفنون الأدبيّة من الفطرة التي نشأوا عليها، وقد اتصفت هذه الفطرة بذائقة فنيّة كان لها القدرة على تمييز ونقد جيّد الكلام من رديئه؛ مما أوجد عندهم ملاحظات نقديّة على البعض من الشعراء، وقد ورد في كتب الأدب نماذجٌ متنوعة من هذه الملاحظات، وقد كان سوق عكاظ خير موقعٍ لتجمع الشعراء وعرض نتاجهم الأدبيّ، وكان الحكم على تلك الأشعار الشاعر النابغة الذّبياني الذي كان ينصب له في السوق قبّة حمراء بحيث يتوافد إليه الشعراء، وينشدون أشعارهم بين يديه، فيحكم ويقول كلمته الفصل فيها، ثمّ ينتشر حكمه بين الناس ولا يستطيع أحدٌ بعد ذلك من معارضته، وقيل إنّ الأعشى جاءه

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضُّحى

وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرن مِنْ نجْدَةٍ دَما

وَلَدْنا بَني الْعَنْقاءِ وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ

فَأَكْرِمْ بِنَا خَالاً وَاكْرِمْ بِنَا أبْنَمَا

عند ذلك أقرّ له النابغة بشاعريّته، لكنّه انتقد قوله: "يلمعن بالضحى" وبيّن له لو أنّه قال: "يبرقن بالدجى" لكان ذلك أكثر بلاغةٍ، كما انتقد قوله: "يقطرن من نجدة دماً" ووضّح له لو كان قوله: "يجرين" لكان أفضل في تبيان انصباب الدم، وهذا يدلّ على أنّ الشعراء الجاهليين كانوا يراعون في نقدّهم القصيدة كاملةً، ويراعون أيضاً النتاج الشعري الكامل للشاعر، وما يرتبط به من مقام وما يلائمه من كلامٍ، إضافةً إلى الانسجام التام في الوزن وصحة المعنى.[٤]

البلاغة عند العرب بعد الإسلام

عندما جاء الإسلام ظهرت عوامل عديدة أدّت إلى الاعتناء بصياغة الكلام، وإظهار المعاني والتراكيب بصورة جميلة وجذّابة، وكان أهم هذه العوامل: نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد (عليه السلام) الذي بدأ بتلاوة آياته على مسامع الصحابة الكرام الذين أخذوا يحفظونها عن ظهر قلب، وكان لهذه الآيات الأثر البالغ في نفوسهم، ورقّة أحاسيسهم، وتسامي أذواقهم، وكانوا قد انبهروا ببلاغة القرآن الكريم ووجدوا أنفسهم عاجزين عن الإتيان بمثله، فأخذوا يتعرّفون على جماليات خصائصه ومظاهر نظمه، أمّا كفار قريش فقد أنكروه وادّعوا تارةً أنّه شعر، وتارةً أخرى بأنّه سحر رغم وقعه الكبير في قلوبهم، وكان أيضاً لأحاديث الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- التي كانت تتردد على مسامع الناس دور عظيم في صياغة الكلام وجماليّته، كما اتصف الخلفاء الراشدون بقوة الخطابة، وكانت لهم ملاحظات في نقد صياغة الكلام وبلاغته، أضف إلى ذلك

بحث المفكر المغربي محمد عابد الجابري في نشأة علم البلاغة، وذكر أنّ المتعارف عليه تاريخياً أنّ الدراسات البيانيّة كانت لها الأسبقية في المؤلفات العلميّة والتي تحوّلت فيما بعد من ثقافة المخاطبة والرواية إلى ثقافة الكتابة والمعرفة والفكر، ولقد أكّدت الدلائل التاريخيّة على أنّ هذه الأبحاث تمّ تدشينها بشكل منظم في العلوم اللغويّة والنحويّة والكلام والفقه، وكان الاهتمام الأولي لهذه العلوم هو تفسير المصطلحات والنصوص القرآنيّة التي كان يجد القارئ صعوبة وغموض في فهمها، ثمّ تطوّر هذا الأسلوب في التفسير وأصبحت النصوص القرآنيّة خاضعة للدراسات البيانيّة واللغويّة والنحويّة إلى أن ربط علماء الكلام هذا المنهج اللغوي الجامع بالمنهج الكلامي.[٥]